

الباب الثاني والعشرون

الإسكندر

الفصل الأول

نفسية فاتح

لقد كانت حياة أرسطو العقلية بعد أن غادر تلميذه الملكى مماثلة لحياة الإسكندر العسكرية ؛ ذلك أن كلتا الحياتين تعبر عن نزعة الفتح ، والبناء ، والتركيب . وربما كان الفيلسوف هو الذى غرس فى عقل الشاب تمحسه الشديد للوحدة وهو التحمس الذى رفع بعض الشئء من قدر انتصارات الإسكندر ؛ لكن أرجح من هذا أن هذا التحمس قد انحدر إليه من مطامع أبيه ، ثم أحاله دم أمه إلى ولع وهيام . وإذا شئنا أن نفهم الإسكندر على حقيقته ، وجب علينا أن نتذكر على الدوام أن عروقه كان يجرى فيها نشاط فليب العارم وحدة أولمپياس الهمجية ؛ يضاف إلى هذا أن أولمپياس كانت تدعى الانتساب إلى أخيل ، ومن أجل هذا كان الإسكندر يهوى الإلياذة ويفتن بها ، وكان يفسر عبوره الهلسينث بأنه تتبع لخطوات أخيل نفسه واستيلاءه على آسية الغربية بأنه إتمام للعمل الذى بدأه جده الأعلى فى طروادة . وكان فى خلال حملاته العسكرية كلها يحتفظ معه بنسخة من الإلياذة عاها شروح بقلم أرسطو ، وكثيراً ما كان يضعها تحت وسادته أثناء الليل بجوار خنجره ، كأنه يرمز بها إلى أدواته وهدفه .

وعنى ليوننداس Leonidas وهو مولوسى Molosian صارم بتربية الغلام الجسمية ، وعلمه ليسمخوس الأدب ، وحاول أرسطو أن يكون عقله . وكان فليب

يرغب في أن يدرس ولده الفلسفة « حتى لا يفعل أشياء كثيرة من نوع الأشياء التي فعلتها أنا والتي آسف على فعلها^(١) » كما قال فليب نفسه . وقد أفلح أرسطو إلى حد ما في أن يجعل منه رجلاً هليينياً ؛ وذلك أن الإسكندر كان طوال حياته يعجب بالأدب اليوناني ويحسد اليونان على حضارتهم ؛ وقد قال مرة لرجلين يونانيين كانا يجلسان معه أثناء المأدبة الوحشية التي قتل فيها كليتوس : « ألا تشعران حين تجلسان في صحبة المقدونيين بأنكما أشبه إليهن بين خلّاق من الهمج^(٢) » .

وكان الإسكندر من الناحية الجسمية شاباً مثالياً . وذلك أنه كان يجيد كل ضروب الألعاب الرياضية : كان عداء سريعاً ، وفارساً جريئاً ، ومبارزاً ماهراً ؛ وكان يجيد الرماية بالقوس ، ولا يرهب أى شيء في الصيد . ولما رغب إليه أصدقاؤه أن يشترك في سباق العدو في أولمبيا أجاب بأنه لم يكن يمانع في ذلك لو أن المتبارين معه كانوا ملوكاً . ولما عجز غيره عن تقديم دليل بوسفلس Bucephalus الجواد الجامح الجبار ، نجح الإسكندر في هذا العمل ؛ فلما رأى ذلك فليب ، كما يقول فلوطرخس ، حياه بتلك الألفاظ التي كانت أشبه بنبوءة بما يجيئه له القدر : « أى بنى ، إن مقدونية لا تنزع لك ، فابحث لنفسك عن إمبراطورية أوسع منها ، وأجدر بك^(٣) » . وكان حتى في أثناء زحفه يصرف بعض نشاطه في أن يرمى بالسهم بعض ما يمر به من الأهداف ، أو ينزل من مركبته ثم يعود فيركبها وهي تجري بأقصى سرعتها . وكان إذا تراخت الحرب خرج إلى الصيد وواجه بمفرده وهو واقف على قدميه وحشياً ضارباً ؛ وسمع ذات مرة بعد أن فرغ من قتال أسد بعضهم يقول إنه كان يحارب الأسد كأنه يبارزه لتقرر نتيجة البراز أيهما يكون هو الملك^(٤) ، فسر من هذا القول أيما سرور . وكان مولعاً بالعمل الشاق والمغامرات الخطرة ، ولم يكن يطيق الراحة . وكان يسخر من بعض أصدقائه الكثيرى الخدم ويقول إنهم لا يجلدون ما يفعلون . ومن أقواله لهم : « عجيب أمرهم ،

كيف لم تدلکم تجاربکم على أن من يعملون ينمون نوماً أعمق من نوم من يعمل لم غيرهم ؛ وهل لا تزالون بحاجة إلى من يدلکم على أن أعظم ما نحتاجه بعد انتصارنا هو أن نتجنب الرذائل وأسباب الضعف التي كان يتصف بها من قبلناهم على أمرهم (٥) . وكان يؤمله ما يضيغ من الوقت في النوم ويقول : « إن النوم وعملية التناسل هما أهم ما كان يشعره بأنه آدمي فان » (٦) . وكان معتدلاً في الطعام ، وظل إلى آخر سني حياته معتدلاً كذلك في الشرب ، وإن كان يجب أن يطيل المكث مع أصدقائه على كأس من الخمر . وكان يحضر الأطعمة اللسمة ، وقد رد مشهورى الطهارة الماهرين الذين عرضوا عليه ، وقال إن مشى ليلة كفيف بأن يقوى شهوته للفطور ، وإن فطوراً خفيفاً يقوى شهوته للغداء (٧) . ولعل هذه العادات هي التي جعلت وجهه وضاه إلى حد كبير ، وجعلت رائحة جسمه ونفسه « زكية تفوح من ملابسه التي على جسمه » (٨) . وإذا ما أخذنا بأقوال معاصريه وضرينا صفحا عن ملق الذين رسموا صورته أو نحتوا تماثيله أو نقشوا رسمه ، حكنا بأنه كان وسيماً بدرجة لم يسبق إليها أحد من الملوك الذين قبله : كان ذا معارف قوية التعبير ، وعينين زرقاوين رقيقتين وشعر غزير أصحمر . وهو الذي ساعد على إدخال عادة حلق اللحية في أوزبا ، وحجته في ذلك أن اللحية تمكن العدو من القبض على صاحبها (٩) . ولعل أكبر آثاره في التاريخ هو هذا الأثر النافه .

أما من الناحية العقلية فقد كان طالباً شديد التحمس للدرس ، لكن التعبات التي ألقبت عليه قبل الأوان لم تترك له فسحة من الوقت ينضج فيها عقله . وكان يمزنه ما يميزن الكثيرين من رجال الجهد والعمل وهو أنه لا يستطيع أن يكون أيضاً مفكراً . ويقول فيه فلوطرخس إنه « كان شديد الشغف بالعلم ، شغفاً يزداد على مر الأيام . . وكان مولعاً بجميع أنواع المعارف عبا لقراءة جميع أنواع الكتب » . وكان من أسباب سروره بعد أن يقضى يوماً في السير أو القتال أن يسهر إلى منتصف الليل يتحدث إلى الطلاب والعلماء . وقد كتب مرة إلى أرسطو يقول : خير لي أن أتفوق على غيري

فى العلوم من أن أنفوق عليهم فى اتساع الملك وقوة السلطان^(٩) . ولقد أرسل بعثة لارتياذ مناج النيل - وقد يكون هذا ببيعاز أرسطو - ؛ وأعان بالمال كثيراً من البحوث العلمية . وليس فى وسعنا أن نحكم أكان إذا امتد به أجله يبلغ ما بلغه قيصر من صفاء الذهن أو ما بلغه نابليون من دقة الفهم . لكن مشاغل الملك أدركته وهو فى العشرين من عمره ، واستغرقت شئون الحرب والإدارة كل وقته وجهده ، ومن أجل هذا بقى ناقص التعليم إلى آخر أيام حياته . نزم إنه كان متحدثاً لبقاً ، ولكنه كان يتورط فى مئآت الأغلط إذا تطرق الحديث إلى شئون السياسة والحرب . ويلوح أنه رغم حروبه الكثيرة لم يعرف من الجغرافية ما كان فى مقدور ذلك العلم فى أيامه أن يمد به . وكان عقله فى بعض الأحيان يسمو عن الآراء الضيقة التحكيمية ، ولكنه بقى إلى آخر أيام حياته عبداً للخرافات والأوهام ، شديد الثقة بالعرافين والمنجمين الذين تزدهم بهم حاشيته . ولقد قضى الليلة السابقة لواقعة أرييلا يقوم بمراسيم سحرية مع الساحر أريستندر Aristander ويقرب القربان إلى إله الخوف . وكان هذا الرجل الذى واجه الناس والوحوش بشجاعة ونشوة « يرتاع لأقل النذر الموهومة » ارتباعاً يحمله على تغيير خططه^(١٠) . وكان فى مقدوره أن يقود آلاف الرجال ، ويهزم الملايين منهم ، ويحكمهم ، ولكنه لم يكن يستطيع السيطرة على طبعه . ولم يتعلم قط الاعتراف بما يرتكب من خطأ أو بما فيه من نقص ، وكان يفتخر بالثناء اغتراراً يطنى على حكمته ويفسدها . وقد عاش طول حياته فى جو من الانفعال والمجد يكاد يذهب بعقله ، وكان يجب الحرب حباً استحوذ على عقله فلم يترك له ساعة ينعم فيها بالسلام .

وكانت أخلاقه تحوم حول أمثال هذه المتناقضات . فقد كان فى قرارة نفسه عاطفياً سريع الانفعال ، تستبقه جبراته ، شديد التأثر بالشعر والموسيقى ، وكان فى أيام شبابه الأولى يعزف على القيثارة ويتأثر بأنغامها

أشد الأثر . ولما عنفه فليب على هذا هجر تلك الآلة ، ورفض من ذلك الوقت أن يستمع لغير النغمات العسكرية ؛ ولعله أراد بهذا أن يتعود السيطرة على حواسه^(١١) كذلك كان يستمسك بالفضيلة في الناحية الجنسية ، ولم يكن ذلك عن مبدل يدين به ، بل لأن مشاغله كانت تحول بينه وبين الانحراف إلى هذه الناحية . ذلك أن نشاطه الدائم ، وسيره الطويل ، وحروبه الكثيرة ، وخططه المعقدة ، وأعباءه الإدارية ، كانت تستنفذ كل قواه ، ولا تترك له إلا القليل من شهوة الحب . وكانت له زوجات كثيرات ، ولكن زواجه بهن كان توضحية منه قضت بها شئون السياسة والحكم ؛ وكان شهماً ذا مروعة في معاملته للنساء ، لكنه كان يفضل عليهن صحبة قواده . وجاءه رجاله ذات مرة إلى خيمته بامرأة جميلة بعد أن مضى من الليل أكثره ، فسألها « لم تأخرت إلى هذا الوقت ؟ » فردت عليه بقولها : « كان على أن انتظر حتى أنيم زوجي » . فصرفها الإسكندر وعنف خدمه وقال لم إنه كاد بأعمالهم أن يصبح زانياً^(١٢) . وكان فيه كثير من صفات اللوطيين ، وكان يحب هفستيون Hephæstion إلى حد الجنون ؛ لكنه حين جاءه ثيودورس التاراسي Theodorus of Taras يعرض عليه أن يبيعه غلامين بارعي الجمال ، طرد ثيودورس من مجلسه وطلب إلى أصدقائه أن يفصحوا له عما أظهره من سفالة وخسة نفس تحملان إنساناً ما على أن يتقدم إليه بهذا العرض الدنيء^(١٣) . وكان يستمسك بصداقة الأصدقاء ويهيم ما يهيم معظم الناس إلى الحب من اشتياق ورقة عاطفية ؛ وليس بين من نعرف من الساسة ، دع عنك القواد ، من فاقه في صدق القول الخالك من التكلف أو في الصداقة الوفية القوية ؛ أو في إخلاصه في حبه وغرضه ، أو في كرمه لمعارفه وأعدائه دع عنك أصدقاءه^(١٤) . وفي ذلك يقول فلوطرخس « وهو ينتهز أقل الظروف ليكتب الخطابات لخدمة الأصدقاء » . وقد كسب حب جنوده بعطفه عليهم ؛ وكان يخاطر بحياتهم ولكنه لم يكن يفعل ذلك جزافاً من غير مبالاة ، كأنه كان يحس بجميع جراحهم ؛ وكما عفا قيصر عن

بروتس وشيشرون ، وكما عفا نابلون عن فوشيه Foché وتأيران Talley - كذلك عفا الإسكندر عن هرپالس Harpalu صاحب بيت المال الذى اختفى بما فى عهده منه ثم عاد إليه يرجو عفوهُ ؛ وقد أدهش الشاب الفانح البناس جميعاً بأن أعاده إلى منصبه ، ويبدو أنه أصلحه بذلك العمل (١٥) . ومرض الإسكندر فى طرهوس عام ٣٣٣ فعرض عليه طبيبه فليپ شراباً مسهلاً . وفى تلك اللحظة وصلت إلى يد الملك رسالة من پرمنيو يقول فيها إن دارا قد رشا فليپ ليدس له السم ، فما كان من الإسكندر إلا أن عرض الرسالة على فليپ ، وبينما كان الطبيب يقرؤها شرب الإسكندر الدواء - ولم يصب بسوء . وقد كان اشتهاره بالنبل والكرم عوناً له فى حروبه ؛ فقد كان كثيرون من أعدائه يلقون بأنفسهم أسرى بين يديه ، وكانت المدن تفتح أبوابها إذا اقرب منها لأنها تخشى على أنفسهم من النهب . ولكنه كان فيه شيء من الشراسة المولوسية ، وقد شاء القدر القاسى أن يقضى عليه ما كان ينتابه أحياناً من نوبات القسوة . مثال ذلك أنه لما استولى على غزة بعد أن حاصرها واقتحم أسوارها واستفزه بطول مقاومتها أمر بأن تخرق قداما باتيس Batis قائدها الباسل ، وأن توضع فيها حاقيات من نحاس . ثم أسكرته ذكرى أخيل ، فشد القائد الفارس بعد موته إلى العربة الملكية بالحبال ، وجرت به أقصى سرعتها حول المدينة (١٨) . وكان إدمانه الخمر إدماناً متزايداً يهدئ به أعصابه مما دفعه فى سنه الأخيرة إلى كثير من أعمال القسوة العمياء التى أخذت تزداد على مر الأيام ، وكانت تتلوها نوبات من الندم الصامت وتوبيخ الضمير العنيف .

وكان من صفاته صفة لها الغلبة على كل ما عداها ونعنى بها الطموح فقد كان وهو شاب يتبرم من انتصارات فليپ ، حتى لقد شكى مرة إلى أصدقائه من أن « أباه سيفرغ من كل شيء قبل أن نستعد نحن ، ولن يترك لى أو لكم فرصة نعمل فيها شيئاً عظيماً خطيراً (١٧) » . وقد دفعته هذه

الرغبة الشديدة في العمل العظيم إلى محاولة القيام بكل واجب واقتحام كل خطر ففى يوم قيرونيا مثلاً كان هو أول من هجم على « العصابة الطيبية المقدسة » ؛ وفى يوم غرانيقوس أطلق العنان لما كان يسميه رغبة فى ملاقاته الأخطار^(١٨) . وقد أصبحت هذه الرغبة هى الأخرى شهوة جامحة ، فكان صوت الحرب ومنظرها يسكرانه ، فينسى فى ذلك واجبات القائد ويندفع إلى معمعان القتال ، وكثيراً ما كان جنوده يلحون عليه أن يرتد إلى المؤخرة لخوفهم أن يفقدوه . على أنه لم يكن قائداً عظيماً ، بل كان جندياً باسلاً أوصله جلده وعناده وعدم مبالاته بالعقبات التى كانت تبدو مستحيلة التذليل إلى انتصارات مؤزرة لم يسبقه أحد إلى مثلها . وكان هو الملهم لجنوده ، أما قواده الذين كانوا من أقدر الرجال فالراجع أنهم هم الذين كانت تقع عليهم أعباء التنظيم والتدريب والكر والفر والفنون الحربية . وكان يقود جنوده يخيله الوضاء ؛ وفصاحته الطبيعية غير المتكلفة ، واستعداده لمقاسمتهم صعابهم وأحزانهم استعداد المخلص الوفى . ولا جدال فى أنه كان إدارياً حازماً ؛ وقد حكم الأملاك الواسعة التى افتتحها بقوة السلاح حكماً رقيقاً حازماً ؛ وكان ينى بالعهود التى يقطعها على نفسه لقواد الجند المهزومين وللمدن المغلوبة ، ولم يسمح قط لموظفيه أن يظلموا رعاياه أو يستبدوا بهم ، ولم يكن وهو يخوض غمار القتال والهيجاء مشتمجراً والأرض منزلة يغفل قط عن هدفه الأسمى الذى لم يحل موته دون إنجازه : وهو ضم البحر المتوسط الشرقى فى وحدة ثقافية جامعة ، تسيطر عليها وتسمو بها حضارة بلاد اليونان الآخذة فى الانتشار .

الفصل الثاني

طريق المجد

لما ارتقى الإسكندر العرش ألقى نفسه على رأس دولة متصدعة ؛ فقد ثارت القبائل الشمالية الضاربة في تراقية وإليريا ؛ وخرجت عن طاعته إيتوليا وأكرانيا Acarnania ، وفوسيس ، وإليس ، وأرجولس ، وطرد الأمبراقويتون Amparciotes الحامية المقدونية من بلادهم ؛ وكان أرتخشتر الثالث يفخر بأنه هو المحرض على قتل فليب ، وأن بلاد الفرس لا تخشى شيئاً من هذا الحدث المراهق الذي ورث الملك وهو في العشرين من العمر . ولما أن وصلت البشائر إلى أثينة بأن فيلب قد مات ازين دمستين بأفخر الثياب وتوج رأسه بإكليل من الزهر ، واقترح على الجمعية أن تضع تاجاً على رأس قاتله بوسنياس تكريماً له (١٩) . وفي مقدونية نفسها كانت عشرة أحزاب أو أكثر تأتمر بحياة الملك الشاب .

وواجه الإسكندر هذه الصعاب كلها بهمة قعساء وعزيمة ماضية قضى بهما على المقاومة الداخلية وخطا الخطوة الأولى نحو مستقبله العظيم . ولما أن ألقى القبض على زعماء المتآمرين في داخل البلاد وقتلهم اتجه بجيوشه جنوباً نحو بلاد اليونان (٣٣٦) وبلغ طيبة بعد بضعة أيام . وأسرعت بلاد اليونان فقدمت له ولاءها ، وبعثت إليه أثينة معتذرة عما فرط منها ، وعرضت عليه تاجين ، ومنحته ما تمنحه الآلهة من مراسم التكريم . فلما هدأت سورة الإسكندر أعلن إلغاء جميع الحكومات الدكتاتورية في بلاد اليونان ، وأمر أن تعيش كل مدينة حرة حسب قوانينها . وثبت له المجلس الأمفكتيوني جميع الحقوق التي منحها فليب ،

واجتمع في كورنثة مؤتمر من جميع دول اليونان ما عدا اسپارطة وأعلانه قائدا عاما لجميع اليونان ، ووعده أن يعينه بالمال والرجال في حروبه الآسيوية المرتقبة : ثم رجع الإسكندر إلى پلا ، ونظم شئون العاصمة ، واتجه بعدئذ نحو الشمال ليقدم أظفار الفتنة التي أوقدت نارها القبائل المتبربرة (٣٣٥) . وزحف على رأس جنوده بسرعة نابلينة حتى وصل إلى موضع مدينة بخارست الحالية ، ورفع علمه على ضفة الدانوب الشمالية . ثم تراءى إليه أن أهل إريا يزحفون على مقدونية فاجتاز مائتي ميل في قاب بلاد الصرب وفاجأ مؤخره الغزاة ، وهزمهم ، ورد فلولهم إلى جبالهم .

لكن إشاعة راجت وقتئذ في أثينة بأن الإسكندر قد قتل وهو يحارب عند نهر الدانوب . فأخذ دمستين يدعو إلى حرب لنيل الاستقلال ، ولم ير حرجاً في أن يقبل مبالغ طائلة من الفرس يستعين بها على تنفيذ خططه . واستجابت طيبة إلى تحريضه فخرجت عن طاعة الإسكندر ، وقتلت الموظفين المقدونيين الذين تركهم فيها الملك الشاب ، وحاصرت الحامية المقدونية المعسرة في حصن الكدميا . وأرسلت أثينة المدد إلى طيبة ، ودعت بلاد اليونان والفرس إلى التحالف على مقدونية . وثارَت نائرة الإسكندر لهذا العمل الذي لم يكن الدافع إليه في نظره رغبة اليونان في الاستقلال ، بل كان غدرآ منها وكفراً بفضله عليها ؛ فزحف بجنوده المتعبين نحو الجنوب وهاجم بلاد اليونان مرة أخرى . ووصل إلى طيبة بعد ثلاثة عشر يوماً ، وشتت شمل جيش سيرته ليصد زحفه ؛ ثم ترك مصير هذه المدينة المجردة من وسائل الدفاع عن أعدائها الأقدمين - پلاتيه ، وأركنوس وئسپيا ، وفوسيس ؛ فقررت هذه المدن أن تحرق طيبة عن آخرها وأن يباع أهلها أرقاء . وأراد الإسكندر أن يتلقى درساً على غيرها من المدن فأمضى هذا القرار ، ولكنه اشترط ألا يمسه الجنود الظافرون بيت پندار بسوء ، وأن يبقوا على حياة الكهنة والكاهنات وجميع الطيبين الذين يثبتون أنهم قاوموا الثورة . وقد ندم

فما بعد على هذا الانتقام العنيف وعده سبة له « ولم يكن يتردد في أن يعطي
أى طيبي ما يطلبه إليه » ، وقد كفر عن بعض ذنبه بمعاملته اللينة لأثينة ،
فتمد عننا عن نكثها ما قطعته على نفسها من عهود في السنة السابقة ، ولم
يتشدد في طلبه تسليم دمستين وغيره من الزعماء الذين قاوموا المقدونيين .
وظل إلى آخر حياته يظهر لها دلائل الاحترام والحب ، فوهب الأكربوليس
كثيراً من الغنائم التي ظفر بها في انتصاراته الأسبوية ، ورد إلى أثينة تمثال
قاتل الطغاة اللذين نهبما خشيارشاي ، وقال عقب حملة حربية مجهدة :
« أيها الأثينيون ، هل تعلمون أى أخطار أعرض نفسي لها لأكون خليفاً
بمحمدكم (١٦) » .

وبعد أن أعربت جميع الدول اليونانية ما عدا اسپارطة عن ولائها
للإسكندر عاد إلى مقدونية وأخذ يستعد لغزو آسية . وقد وجد أن خزائن
الدولة تكاد أن تكون نفاوية ، بل وجد أنها مثقلة من عهد فليب بعجز
يبلغ مقداره خمسمائة وزنة (نحو ٣٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) (١٧) ، فاقترض
ثمانمائة وشرع يتغلب على ديونه قبل أن يتغلب على العالم . وكان قد عقد
النية على محاربة الفرس بوصفه بطل هلاس وناصرها ، ولكنه عرف أن
نصف بلاد اليونان كان يرجو أن يلاقى حتفه . ونقل إليه عيونهم أن في
مقدور الفرس أن يحشدوا لقتاله ألف ألف رجل ؛ أما هو فلم تزد قوته التي
سيرها لقتالهم على ثلاثين ألفاً من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان . بيد
أن هذا الأخييل الجديد لم يعبا بهذا الفرق الهائل ، وترك اثني عشر ألف
جندي بقيادة أنتباتر Antipater لحراسة مقدونية ومراقبة بلاد اليونان ،
وبدأ في عام ٢٣٤ أجراً وأعجب مخامرة روائية في تاريخ الملوك . وعاش
بعد ذلك إحدى عشرة سنة ولكنه لم ير من ذلك اليوم بلاده أو أوربا . وبينما
كان جيئته يعبر الهلسبنت من لسبوس إلى أبيدوس اختار هو أن ينزل إلى البر
عند رأس سيجيوم Sigium ويسير في الطريق الذي كان يعتقد أن أجمنون
سار فيه إلى طروادة . وكان في كل خطوة يذكر لرفاهه فقرات من الإلياذة :

فقد كان يحفظها كلها تقريباً عن ظهر قلب . ولما جاء إلى قبر أخيل المزعوم سب عليه الزيت تكريماً له ووضع عليه تاجاً من الزهر ، وسعى عارياً حوله كما كان يفعل الأقدمون ، وصاح قائلاً : « ما أسعد أخيل ! إذ كان له في حياته هذا الصديق الوفي ، وبعد مماته ذلك الشاعر العظيم ليمجده ويخلد ذكره » (٢٨) . وأقسم في تلك الساعة أن يواصل ذلك الكفاح الطويل بين أوروبا وآسية الذي بدأ عند طروادة حتى نهايته المظفرة .

وليس من غرضنا في هذا الكتاب أن نعيد ذكر انتصاراته . وحسبنا أن نقول إنه التقى بأول جيش فارسي عند نهر غرانيقوس وهزمه . وفي هذه الواقعة أنقذ كليتس Cleitus حياة الإسكندر بأن قطع يد جندي فارسي أو شك أن يضرب الإسكندر من خلفه . وليس من دأبنا أن نفعل ما يفعله بعض المؤرخين الخياليين فنفرض الفروض ونبنى التاريخ على أمثال هذه الحوادث العارضة أو نتخذها أساساً لهذه الفروض . وبعد أن أراح رجاله بعض الوقت واصل السير إلى أيونيا ، وأنشأ في المدن اليونانية حكومات ديمقراطية تحت حمايته . وقد فتحت له معظم هذه المدن أبوابها من غير مقاومة . والتقى عند إسوس بجيش الفرس الرئيسي ، وكان يبلغ ٦٠٠٠٠٠ مقاتل يقودهم دارا الثالث . وكسب المعركة مرة أخرى باستخدام فرسانه للهجوم ومشاته للدفاع . وفر دارا من الميدان وترك وراءه أهواله وأسرته ؛ وشكر له الإسكندر هديته الأولى وعامل الهدية الثانية معاملة الرجل الشهم الكريم . وبعد أن استولى على دمشق وصيدا من غير قتال حاصر صور ، وكان بها أسطول فينيقي قوى استأجره الفرس لخدمتهم في القتال . وقاومته المدينة القديمة مقاومة طويلة غضب لها الإسكندر أشد الغضب ؛ ولما أن استولى عليها آخر الأمر ركب رأسه فترك رجاله يذبحون ثمانية آلاف من أهلها ، ويبيعون منهم ثمانين ألفاً بيع الرقيق . واستسلمت له أورشليم بلا

مقاومة فأحسن معاملتها ، وحاربه غزاة حتى قتل كل رجل في المدينة وسيت كل امرأة .

وواصل المقدونيون زحفهم المظفر محترقين صحراء سيناء إلى مصر ، وفيها كان الإسكندر حكيمًا ، فعظم آلهتها ورحب به أهلها ، ورأوا فيه متقدماً أرسلته الآلهة ليحررهم من نير الفرس . وعرف الإسكندر أن الدين أقوى من السياسة فاخترق صحراء أخرى إلى واحة سيوة ، وقدم الطاعة إلى الإله آمون - وهو أبوه نفسه إذا جاز لنا أن نصدق أولمبياس . وتوجه القساوسة المرنون فرعونًا ، وأقاموا له الطقوس القديمة ، ومهدوا بعملهم هذا الطريق لأسرة البطالمة . فلما تم له ذلك عاد إلى وادي النيل وبدأ له أن يقيم عاصمة جديدة ، أولعله وافق على إقامتها ؛ عند أحد مصاب نهر النيل الكثيرة ؛ وربما كان اليونان المقيمون في نقراطس (نقراش) القريبة من هذا المكان قد أشاروا عليه بإنشائها لأنها بموقعها هذا تكون مستودعاً أحسن من نقراطس للتجارة اليونانية الكبيرة التي كان يرجى أن تتبادل بين مصر وبلاد اليونان . وخطط الإسكندر محيط أسوار الإسكندرية وحدود شوارعها الرئيسية ، ومواضع الهياكل التي اعتزم أن يقيمها لآلهة المصريين واليونان ، ثم ترك ما عدا هذا من التفاصيل لمهندسه دنقراطيس (*). Dinocrates

ثم عاد بجيشه إلى آسية والتي عند جوكيلا قرب أرييلا بجيش دارا المؤلف من خليط من الأمم ، وارتاع لكثرة عدده ؛ وكان يعرف أن هزيمة واحدة كفيلة بأن تذهب بجميع ما سبقها من انتصارات . لكن جنوده هدأوا زوعه وقالوا له « طب نفساً أيها السيد المعظم ، ولا ترهبك كثرة عدد الأعداء ،

(*) وكان دنقراطيس قد أدخل السرور على قلب الإسكندر بأن عرض عليه أن يبنيت جبل آتوس - الذي يباغ ارتفاعه ستة آلاف قدم - ليجمعه تماثلاً للإسكندر يقف والبحر يفره إلى وسطه ، ويمسك مدينة في إحدى يديه وبرقاً في اليد الأخرى (٢٤) ، لكن هذا للمشروع ظل حلماً من الأحلام . (٣٦ - ج ٢ مج ٢)

لأنهم لن يستطيعوا الوقوف أمام رائحة المعز التي تصحب جيوشنا^(٢٥) ، وقضى الليلة يستكشف الأرض التي ستدور فيها المعركة ، ويقرب القرابين للآلهة ، وكان نصره مؤزرا حاسما ، فلم تستطع جيوش دارا المحتلة النظام أن تصمد أمام فيالتي الإسكندر المتراصة ، ولم تعرف كيف تدافع عن نفسها أمام هجمات الفرسان المقدونيين السريعة المتكررة ، فتبدد شملها وولت لأدبار ، ولم يكن دارا آخر الفارين . وقتله قواده جزاء له على جنبه ، في الوقت الذي كان الإسكندر يتقبل فيه خضوع بابل ، ونصيبا من ثروتها ، ويوزع بعضها على جنده ، ويأسر قلوب أهل المدينة بتعظيم آلهتها وإصدار أوامره بإعادة أضرحتها المقدسة . ولم تنته سنة ٣٣١ حتى كان قد وصل إلى مدينة السوس ، وكان أهلها لا يزالون يذكرون مجد عيلام القديم فاستقبلوه استقبال المنقذ . وقد حمى المدينة من النهب وعض جنوده عن ذلك بأن قسم بينهم بعض الخمسين ألف وزنة (٣٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي) التي وجدها في أقبية دارا . وأرسل إلى أهل بلاتية قدراً كبيراً من هذا المال لأنهم قاوموا الفرس مقاومة عنيفة في عام ٤٨٠ ، ويبدو أنه رد إلى مدن آسية « العطايا » التي استولى عليها منها في بداية الحملة^(٢٦) . وأعلن إلى اليونان في جميع أنحاء العالم في فخر وكبرياء أنهم أصبحوا الآن أحراراً مستقلين آتم الاستقلال عن حكم الفرس .

ولم يكد يستريح في السوس حتى واصل انزحف فوق الجبال في قلب الشتاء ليستولى على پرسبوليس ؛ وقد بلغ من سرعة زحفه أن وصل إلى قصر دارا قبل أن يستطيع الفرس إخفاء الكنوز الملكية . وهنا ركب رأسه فحرق المدينة العظيمة ودكها دكا ، وانطلق جنوده ينهبون البيوت ويسبون النساء ويقتلون الرجال . ولعل الذي أثار سخطهم هو أنهم رأوا وهم مقبانون على المدينة ثمانمائة من اليونان قد مثل بهم الفرس لأسباب مختلفة فقطعوا أرجلهم



(شکل ۴۳) هرمس پرکستابز (متحف اولمپیا)

أو أيديهم أو آذانهم أو ققاروا عيونهم . وأبصرهم الإسكندر فيكى من فرط
التأثر وأقطعهم أرضاً زراعية وخصهم بأتباع يزرعونها لهم .

ولم يكتف الإسكندر بما نال من مجد فحاول أن يفعل ما عجز عن فعله
قورش - وهو إخضاع القبائل التي كانت تخوم حول تخوم بلاد الفرس
من الشرق ، ولعله كان يأمل لقلة معلوماته الجغرافية أن يجد وراء الشرق
الغامض المجهول ذلك الأقيانوس الذي يصلح لأن يكون حداً طبيعياً للدولة
العظيمة التي أقامها بسيفه . ولما دخل سجديانا مر بقرية يسكنها أبناء
البرنشيدي Branchidae الذين أسلموا لخشيارشاي قرب ميليطس كنوز
هيكلمهم . وتملكته فكرة الانتقام للاله الذي انتهب ماله ، فأمر بأن يقتل
جميع أهلها بما فيهم النساء والأطفال - فاقنص بهذا العمل من الآباء بعقاب
الجيل الخامس من الأبناء . وكانت حروبه في سجديانا ، وأريانا ،
وبكتريانا ، وحشية لم يجن منها نفعاً ، فقد نال فيها بعض النصر ، وعثر
في أعقابها على بعض الذهب ، وترك من ورائه أعداء في كل مكان . وقبض
رجاله قرب بخارى على بسوس Bessus قاتل دارا . وأقام الإسكندر نفسه
فجاعة مطالباً بدم الملك العظيم ، فضرب بسوس بأمره بالسياط حتى كاد يقضى
عليه ، وجدع أنفه وصملت أذناه ، ثم أرسل إلى إكباتانا حيث قتل بأن ربط
خراجه في إحدى الأشجار وساقه في شجرة أخرى ، وكانت الشجرتان قد
ضممتا بالحبال ، فلما قطعت حبالها مزقت الشجرتان جسمه (٢٧) . وهكذا
نكأن الإسكندر كلما بعد عن بلاد اليونان قلت فيه صفات اليونان وزادت
نزعة الممجية .

وزراه في عام ٣٣٧ يخترق جبال الهملايا لينقض على الهند . وكان غروره
وتشوفه كانا يأتوران به ليقوداه إلى هذا الصقع الثأى . ونصحه قواده بالألا يقدم
على هذه المغامرة ، وأطاعه جنده وهم كارهون ، فعبر نهر السند ، وهزم الملك
پورس Porus ، وأعلن أنه سيواصل الزحف حتى نهر الكنج Ganges لكن

جنوده أبو أن يتقدموا خطوة واحدة . فحاول إقناعهم ، وقضى ثلاثة أيام متجهما في خيمته كما فعل جده أنخيل من قبل ؛ ولكن ذلك لم يجده نفعاً لأن جنوده قد سثموا القتال ، فعاد أدراجه مكتئباً حزينا ، كارهاً أن يواجه الغرب مرة أخرى ، وشق طريقه وسط قبائل معادية له ، بشجاعة لم يسع جنوده حين شهدوها إلا أن يبكوا لعجزهم عن تحقيق جميع أحلامه وكان هو أول من تسلق أسوار ماليا Mallia ؛ وبعد أن قفز هو واثنان من جنده إلى داخل المدينة ، تحطم السلم الذي صعدوا عليه ، ووجد هو وزميلاه أنفسهم محيط بهم الأعداء من كل جانب . وحارب الإسكندر حتى سقط على الأرض مثنخاً بالجراح ؛ وكان جنوده في هذه الأثناء قد اقتحموا أسوار المدينة ، وأخذوا واحداً بعد واحد يضحون بجياهم دفاعاً عن ملكهم الملقى على الأرض . فلما انتهت المعركة ، حمل الإسكندر إلى خيمته ، والجند يقبلون ثيابه وهو مار بهم . وبعد أن قضى ثلاثة أشهر في دور النظاهة بدأ الزحف من جديد بمحاذاة نهر السند حتى وصل آخر الأمر إلى المحيط الهندي . ومن هنا أرسل قسماً من جيوشه بطريق البحر بقيادة نيارخوس Nearchus ، واستطاع هذا القائد الماهر أن يقوم بهذه الرحلة بعد أن اخترق بحاراً لا عهد له بها وقاد الإسكندر بنفسه بقية الجيش متجهاً به نحو الشمال الغربي بمحاذاة ساحل الهند ، وغترقاً صحراء جندروسيا Gedrosia (بلوختان) ؛ وقاسى جنوده فيها ما قاسته جنود نابليون في أثناء ارتدادهم من مسكو ، فقد قضى آلاف منهم من شدة الحر ، وهلك من العطش أكثر من هؤلاء ؛ ثم وجدوا قليلاً من الماء ، وجرىء به إلى الإسكندر ، فصبه متعمداً على الأرض^(٢٨) . ووصلت فلول جيشه إلى السوس بعد أن قتل منهم عشرة آلاف ، واختلت موازين عقل الإسكندر نفسه من كثرة ما لاقاه من الأهوال .

الفصل الثالث

موت إله

وكان قد قضى حتى ذلك الوقت تسع سنين في آسية ، أحدث فيها من التأثير بانتصاراته قل مما أحدثته هي فيه بأساليبها الشرقية . ذلك أن أرسطو قد علمه أن يعامل اليونان معاملة الأحرار وأن يعامل « البرابرة » معاملة العبيد . ولكنه دهش إذ وجد بين أشرف الفرس مستوى من الرقة وحسن الخلق لم يره كثيراً في الديمقراطيات اليونانية المضطربة ؛ وأعجب بالطريقة التي نظم بها الملوك العظام إمبراطوريتهم ، وارتاب في مقدرة المقدونيين الغلاظ على أن يجلوا محل حكام هذه الإمبراطورية ، وأدرك أن السبيل الوحيدة إلى تثبيت فتوحه واستقرارها بعض الاستقرار هي أن يسترضى أشرف الفرس حتى يقبلوا زعامته ، فإذا فعلوا استخدمهم في المناصب الإدارية . وزاد سروره برعاياه الجدد يوماً بعد يوم ، فتمخلى عن فكرته القديمة وهي أن يحكمهم بوصفه ملكاً مقدونيا ، ونحال نفسه إمبراطوراً يونانياً - فارسياً يحكم دولة يكون فيها الفرس واليونان أكفاء ، وتمتزج ثقافتهم ودماؤهم امتزاجاً سلمياً ، فبنتهى النزاع الطويل بين أوروبا وآسية بذلك الاقتران السعيد بين حضارتيهما .

وكان آلاف من جنوده قد تزوجوا من نساء البلاد المفتوحة ، وأخذوا يعاشرونهن ؛ فلم لا يفعل هو أيضاً فعلهم ؟ فيتزوج بابنة دارا ويسوى النزاع بين الأمتين بأن يلد لها ملكاً يجرى في جروقه دم الأسرتين . لقد تزوج قبل ذلك الوقت رَسَانَا الأميرة البكترية ، ولكنه لم يكن يرى أن هبسه عقبة تقف في طريقه ، وعرض الفكرة على ضباطه وأشار عليهم أن يتخلوا لهم

أزواجاً فارسيات . وتبسموا ضاحكين من فكرة توحيد الأمتين ، ولكنهم كانوا قد قضوا زمناً طويلاً بعيدين عن ديارهم ، وكانت نساء الفرس ذوات جمال بارع . ومن ثم أقيم عرس عظيم في السوس (٣٢٤) تزوج فيه الإسكندر امستاتيرا Stati ابنة دارا الثالث ، وپرساتس Parysatis ابنة أرتخشتر الثالث ، وهذا ربط نفسه بفرعى الأسرة المالكة الفارسية ، واتخذ ثمانون من ضباطه لم زوجات فارسيات . وحذا حذوهم بعد زمن يسير آلاف من الجنود فتزوجوا من فارسيات . ووهب الإسكندر كل ضابط من ضباطه بائنة قيمة وأدى ما على الجنود الذين تزوجوا من ديون - وقد بلغت هذه الهبات (إذا جاز لنا أن نأخذ بأقوال أريان Arrian) عشرين ألف وزنة (نحو ١٢٠٠٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكي^(٢١)) . وأراد أن يزيد هذا الاتحاد بين الشعبين قوة ، ففتح أراضي الجزيرة وفارس للمستعمرين اليونان ، وخفف بهذا العمل ضغط السكان في بعض الدول اليونانية وقلل من حدة حرب الطبقات . ومن ذلك الوقت بدأت تقوم تلك المدن المتأخرقة الآسيوية التي صارت فيما بعد جزءاً هاماً من الإمبراطورية السلوقية Seleucid Empire وجمع في الوقت نفسه ثلاثين ألفاً من شباب الفرس وعلمهم على الطريقة اليونانية ودرهم على فنون الحرب اليونانية .

ولعل زوجاته كن من أسباب ميله إلى الأساليب الشرقية ، أو لعل هذا الميل كان خطأ وقع فيه لشدة تواضعه ، أو لعله كان جزءاً من خطة موضوعة . وفي ذلك يقول فلوطرخس : « فلما كان في فارس بدأ يلبس الثياب « البربرية » (أى الأجنبية) ولعله أراد بذلك أن يبسر تحضير الفرس لأن أكبر ما يؤثر في الناس هو أتباع عاداتهم ... بيد أنه لم يتبع عادات الميديين ... بل اختط خطة وسطا بين الأساليب الفارسية والمقلونية ، وكيف عاداته بحيث خلعت من التفاخر الذي هو من مميزات الأولين ، ولكنها كانت أكثر أهبة وفخامة من الآخرين^(٢٠) »

وكان جنوده يرون في هذا التغيير استسلاماً من الإسكندر للشرق ، ويحسون أنهم بذلك قد خسروه ، وفقدوا ما كانوا يرونه من أدلة العناية والعطف التي كان يضيفها عليهم في كل حين . وأظهر له الفرس فروض الطاعة والولاء ، وأرضوه بضروب الملق والدهان ؛ وشرع المقدونيون ، بعد أن رقق الترف الشرق طباعهم يظهرون استيائهم من الواجبات الثقيلة التي كان يفرضها عليهم ، ونسوا إحسانه لهم ، وأخذوا يتهامون بالفرار من الجيش ، بل لأنهم شرعوا يأترون به ليقتلوه . وبدأ هو يفضل صحبة عظماء الفرس على صحبة اليونان .

وكان أكبر شاهد على ارتداده عن دينه أو على حسن سياسته هو جهره ألوهيته ، وذلك أنه بعث في عام ٣٢٤ إلى جميع الدول اليونانية ما عدا مقدونية (لأن ما في الرسالة التي بعث بها من إهانة لقلب قد يثير غضب أهلها) يبلغها أنه يرغب في أن يعترف به من ذلك الوقت ابناً لزيوس - أمون . وصدعت معظم الدول بما أمرت ، ولم تر في الأمر أكثر من لقب صوري ، بل إن الاسبارطيين المعاندين أنفسهم لم يخرجوا على الأمر وقالوا في أنفسهم : « فليكن الإسكندر إلها إذا شاء » . ولم يكن تأليه إنسان ما ، بمعنى لفظ الألوهية عند اليونان ، ليرفع من شأنه كثيراً ؛ ذلك أن الهوة التي تفصل بين الإنسانية والألوهية لم تكن وقتئذ واسعة كما أضحت في الأديان الحديثة . ولقد جمع كثيرون من اليونان بين الصفتين ، ومن هؤلاء هوداميا ، وأوديب ، وأخيل ، وإفخينيا ، وهلم . كذلك كان المصريون يحسبون فراعنتهم آلهة ؛ ولو أن الإسكندر غفل عن أن يضع نفسه في هذا الوضع لكان من المحتمل أن يغضب المصريون لخروجه هذا الخروج العنيف على السوابق المقررة عندهم . ولقد أكد كهنة سيوة ، وديديما Didyma ، وبابل ، وهم الذين يعتقد الناس فيهم أن لديهم مصادر خاصة يستقون منها أمثال هذه الأنباء ، أنه من نسل الآلهة . أما أن الإسكندر قد اعتقد بحق (كما يظن جروت^(٣١)) أنه إله بأكثر من المعنى المجازي لهذا اللفظ فأمر

بعيد الاحتمال . نعم إنه بعد أن أله نفسه أصبح سريع الغضب متغطرساً ، وإن سرعة غضبه وغطرسته تزدادان على مر الأيام . ولسنا ننكر أيضاً أنه جلس على عرش من الذهب ، وارتدى ثياباً كهنوتية ، وزين رأسه في بعض الأحيان بقرني أمون (٣٣) . ولكنه حين لم يكن يظهر ألوهيته لأغراضه الدنيوية كان يسخر من هذه العظمة التي يدعيها لنفسه ؛ ولما أن جرحه سهم قال لبعض أصدقائه : « ها أنتم هؤلاء ترون أن هذا دم لا غذيدة كالتى تسيل من جراح الآلهة المخلدين (٣٣) » . وما من شك في أنه لم يكن يحمل قصة والدته عن الصاعقة محمل الجلد ، وذلك واضح من غضبه الشديد على أتلس حين قال ما قال عن مولده ، ومن قوله هو عن حاجته إلى النوم الذى يميز البشر من الآلهة . وحتى أولمبياس نفسها قد ضحككت ساخرة حين سمعت أن الإسكندر قد سجل قصتها الخرافية في السجلات الرسمية ، وسألت قائلة : « ألم بأن للإسكندر أن يمتنع عن التشنيع على عند هيرا (٣٤) ؟ » ولقد ظل الإسكندر نفسه بالرغم من ربوبيته يقرب القرابين إلى الآلهة ، وهو عمل لم نسمع قط بأن إلها قد أتى به ، ولم يكن فلوطرخس وأريان وهما الرجلان اللذان يستطيعان أن يحكما في هذه المسألة لأنهما يونانيان ، يشكان في أن الإسكندر قد أله نفسه ليتخذ ذلك التأليه وسيلة تيسر له حكم سكان إمبراطوريته المختلطي الأجناس والذين يؤمنون بالخرافات (٣٥) . ولا ريب في أنه كان يحس أن مهمة توحيد العالمين المتعادين تيسر له إذا قبلت الطبقات العليا من أهلها دعوى ربوبيته وعظمتها الطبقات الدنيا وقدمته : ولعله قد فكر في أن يتغلب على ما تثيره الأديان المختلفة في الإمبراطورية من نزعة انفصالية بأن ينشر فيها حول شخصيته أسطورة مقدسة ودينا عاما تؤمن به جميع شعوب هذه الإمبراطورية (*) .

(*) ويحدثنا لوشيان عن هذا رأى القديم في إحدى « محاورات الموق » فيقول : « فليب : لا تستطيع يا إسكندر أن تنكر أنك ولهى ، ولو أنك كنت ابن أمون لما جازملك »

ولم يكن في مقدور المقدونيين أن يسبروا غور خطط الإسكندر السياسية : ذلك أنهم وإن تأثروا بالروح اليونانية إلى الحد الذي تحورت به عقولهم من الاسترقاق الفكرى ، لم يرقوا إلى درجة التسامح الفلسفى ، ورأوا أن ما طلبه إليهم من السجود له حين يقتربون منه مذلة لا يرضونها لأنفسهم . ومن أجل ذلك دبر فيلوتاس Philotas ، وهو ضابط من أشجع ضباطه ابن قائد من أكفأ قواده وأحبهم إليه ، بالاشتراك مع القائد برمنيو Parmenio مؤامرة لقتل الإله الحديد . ووصلت أبناء المؤامرة إلى مسامع الإسكندر ، فأمر بالقبض على فيلوتاس وانزع منه بضروب التعذيب اعترافاً باشتراك أبيه مع المتآمرين . وأرغم على أن يكرر هذا الاعتراف أمام الجند ، فربحوه من فورهم بالحجارة حتى مات ، وكانت هذه عادتهم فى مثل هذه الحالة . أما برمنيو فقد أعدم بأمر الملك لأنه مجرم فى أغلب الظن ، وأنه على كل حال عدو لا يؤمن بجانبه . وتوترت العلاقات بين الإسكندر وجيشه من ذلك الحين - فأخذ الجنود يزدادون غضباً واستياء ، وأخذ الملك يزداد فى كل يوم ريبية وقسوة وعزلة .

وحمله تساميه ، وعزلته ، وكثرة مشاغله المطردة الزيادة ، على أن يحاول إغراق همومه فى الشراب . وقد حدث فى مأدبة أقيمت فى سمرقند أن شرب كليتس الذى أنقذ حياة الإسكندر فى يوم غرانيقوس حتى فقد وعيه ، فقال للإسكندر : إن ما نال من النصر يرجع الفضل فيه إلى جنوده لا إليه ، وإن أعمال فليب أعظم من أعماله . وكان الإسكندر هو الآخر ثملاً فقام ليضربه ، ولكن بطليموس لاجوس Ptolemy Lagus (الذى أصبح بعد قليل والياً

== الموت الإسكندر : لقد كنت طوال الوقت أمرف أنك أبى ، ولم أقبل قول الوصى إلا لأنى ظننته غطة سياسية صالحة ... ذلك أن البرابرة حين عرفوا أن الذى أمامهم إله ، اتبتهموا عن القتال ، وقد يسر لى ذلك هزيمتهم وفتح بلادهم

على مصر) أخرج كليتس من مكان المأدبة . بيد أن كليتس كان يريد أن يقول أكثر مما قال ، فعاد ليواصل طعنه . فرماه الإسكندر بحربة أردته قتيلا . وندم الإسكندر بعدئذ على عمله هذا ندما حمله على أن يعتزل الناس ثلاثة أيام كاملة ، امتنع فيها عن الطعام ، وانتابته نوبات هستيرية ، حاول فيها أن ينتحر : ولم يمض بعد ذلك إلا قليل من الوقت حتى قام هرمولوس Hermolaus ، وهو خادم من خدم الإسكندر عاقبه في يوم من الأيام عقابا ظالما ، بتدبير مؤامرة أخرى لقتله . وقبض على الغلام وعذب حتى أتى باعتراف اتهم فيه كلستانس Caillisthenes ابن أخي أرسطو . وكان كلستانس هذا يرافق الحملة بوصفه مؤرخاً رسمياً لها ، وكان قد أغضب الملك لأنه أتى أن يسجد له ، وأخذ ينتقد أساليبه الشرقية ، ويتباهى بأن الخلف لن يعرف الإسكندر إلا عن طريق كلستانس المؤرخ . وأمر به الإسكندر فسجن حتى مات بعد سبعة أشهر من ذلك الوقت(*) . وقضت هذه الحادثة على ما كان بين الإسكندر وأرسطو من صداقة ، وكان الفيلسوف قد ظل عدة سنين يعرض حياته لأشد الأخطار بدفاعه عن قضية الإسكندر في أثينة .

وظل سخط الجيش يزداد حتى أوشك أن يكون في آخر الأمر تمرداً علنياً . ولما أعلن الملك في يوم من الأيام أنه يريد أن يرجع إلى مقدونية أكبر الجنود ستا بعد أن يمنح كلا منهم جائزة سنوية نظير خدمته(**) ، هاله أن يسمع الجند يتهامون بأنهم يحبون أن يفصلهم جميعاً من سلك الجندية ، لأنه وهو إله لا حاجة له بالناس ليحققوا أغراضه . فلم يكن منه إلا أن أمر

(*) تروى قصص متناقضة عن جريمته وموته (٤٧) . وأشهر ما تركه وراءه ثلاثة كتب : « الملينيكا He Hentika » وهو تاريخ لبلاد اليونان من ٢٨٧ إلى ٣٢٧ ، « وتاريخ الحرب المقدسة » و « تاريخ الإسكندر » .
(**) ويؤكد لنا أريان أنه وهب كلا منهم وزنه زيادة على مرتبه الذي لم يكن لينقطع حتى يعود إلى وطنه .

بقتل زعماء الفتنة ، ثم أتى على الجنود خطبة مؤثرة^(٢٩) (ولكنها في أغلب الظن مشكوك في صحتها) ذكر فيها كل ما فعلوه من أجله ، وكل ما فعله هو من أجلهم ، وسألهم هل فيهم من يستطيع أن يظهر في جسده من الجروح أكثر مما فيه هو ؟ وهل فيهم رجل مثله في جسده أثر من كل سلاح من أسلحة القتال ؟ ثم أذن لهم جميعا في آخرها أن يعودوا إلى ديارهم وقال لهم : « عودوا إلى أوطانكم وقولوا للناس إنكم تخليتم عن مليكمم ، وتركتموه في حماية الأجانب المغلوبين » . ثم آوى إلى حجرته وأبى أن يقابل أحداً من الناس . فدم جنوده أشد الندم ، وأقبلوا على قصره ، وألقوا بأنفسهم على الأرض أمامه ، وأعلنوا أنهم لن يغادروا أماكنهم حتى يعفو عنهم ويعيدهم إلى جيشه . ولما أن ظهر أمامهم في آخر الأمر ، أجهشوا بالبكاء وأصرروا على أن يقبلوه ، فلما رضى عنهم عادوا إلى معسكرهم ينشدون أناشيد الحمد والثناء .

واغتر الإسكندر بمظاهر الحب هذه ، فأخذ يحلم بمواصلة الحروب والانتصارات ، ووضع الخطط لفتح بلاد العرب الغامضة ، وأرسل بعثة لارتياح أقاليم بحر قزوين ، وفكر في الاستيلاء على أوريا حتى أعمدة هرقل . غير أن تعرضه للجواء المختلفة وإدمانه الشراب كانا قد أضعفا بنيته القوية ، كما أن مؤامرات ضباطه وتمرد جنوده كانا قد أوهنا قوته النفسية . وبينما كان بجليش في إكبتانا مرض هفستيون Hephæstion أعز أصدقائه وقضى نحبه . وكان الإسكندر يحبه حبا بلغ من شدته أنه حين دخلت زوجة دارا خيمة الملك الفاتح وانحنت أولا لهفستيون احتراما له لظنها أنه هو الإسكندر ، قال لها الملك الشاب في رقة ولطف : « إن هفستيون هو أيضاً إسكندر^(٣٠) » وكأنما أراد بقوله هذا أنه هو وهفستيون رجل واحد . وكثيرا ما كان الرجلان يشتركان في خيمة واحدة ، وكانا في الحرب يقاتلان جنبا إلى جنب . وأحس الملك بعد موته أن نصفه قد انتزع منه ، فأحزنه ذلك وقت

في عضده ، وقضى عدة ساعات ملقى على جثة صديقه يبكي وينتخب ؛ واقتلع شعره من فرط الحزن ، وأبى أن يتناول شيئاً من الطعام عدة أيام متوالية ، وحكم بالإعدام على الطبيب الذى ترك الشاب المريض ليشهد الألعاب العامة ، وأمر أن تكرم ذكرى هفستيون بإقامة محرقة جنازية ضخمة بلغت نفقاتها كما يقولون عشرة آلاف وزنة (٦٠٠٠٠٠ ر٠ ٦٠٠٠٠٠ ريبال أمريكى) وبعث يسأل مهبط الوحى من أمون هل يجوز أن يتخذ هفستيون إلها يعبد ، وأمر في الوقائع الحربية التى دارت بعدئذ أن تقتل قبيلة على بكرة أبيها قربانا لروح هفستيون . وكانت الفكرة التى تراوده وهى أن أخيل لم يعش طويلا بعد موت بتركلس تقض مضجعه كأنها حكم عليه بالإعدام .

ولما عاد إلى بابل زاد انغمسه في الشراب شيئاً فشيئاً . وبينما كان يشرب مع ضباطه ذات ليلة إذ عرض عليهم أن يتباروا في شرب الخمر . فتجرع برامكس نحو ثلاثة جالونات وفاض بالجائزة وهى وزنة من الذهب ، ومات بعد ثلاثة أيام . وأقيمت مأدبة أخرى بعد أيام قلائل شرب فيها الإسكندر نخايبية تحتوى نحو جالون ونصف من الخمر ، وعاد في الليلة التالية إلى الشراب ، ثم اشتد البرد فجاءة فأصيب بالحمى وآوى إلى فراشه . ولم تفارقه الحمى عشرة أيام كاملة ظل في أثنائها يصدر الأوامر إلى جيشه وأسطوله . ثم مات في اليوم الحادى عشر في السنة الثالثة والثلاثين من عمره (٣٢٣) ولما سأله قواده لمن يترك ملكه أجابهم بقوله : « إلى أعظمتكم قوة » (١) .

وقد عجز الإسكندر كما عجز أكثر العظماء عن أن يجد رجلا جديراً بأن يخلفه على عرشه ، وكان قد مضى نجه قبل أن يتم عمله . على أن هذا العمل رغم هذا لم يكن جليلا فحسب بل كان فوق ذلك أبى على الدهر مما يظنه الناس عادة . فكانت الضرورات التاريخية قد اختارت الإسكندر لتغيير

الأوضاع السياسية القائمة في ذلك الوقت ، فقد قضى على عهد دول المدن ، وأنشأ بعد التضحية بقسط غير قليل من حرية هذه المدائن نظاما أوسع رقعة وأعظم استقرارا من أى نظام عرفته أوروبا قبل عهده . وقد ظلت الفكرة التي قامت بذهنه عن الحكم ، الحكم الاستبدادى الذي يستعين بالدين لفرض السلم على أمم مختلفة الأجناس والألوان ، نقول ظلت هذه الفكرة هي المسيطرة على أوروبا حتى العصر الحديث عصر القومية والديمقراطية . وقد حطم الحواجز القائمة بين اليونان و « البرابرة » ومهد السبيل لعالمية للعصر الهلنستى ؛ وفتح آسية الدنيا للاستعمار اليونانى ، وأنشأ في بلاد الشرق مستعمرات يونانية وصلت في هذا الاتجاه إلى بكثريا ، وجمع عالم البحر الأبيض المتوسط الشرقى في نظام تجارى موحد واسع النطاق شجع التجارة وأطلقها من قيودها ؛ ونقل الآداب والفلسفة والفنون اليونانية إلى آسية ، ومات قبل أن يدرك أنه مهد السبيل لذلك الانتصار الدينى العظيم الذى ظفر فيه الشرق بالغرب . ولقد كان ارتداؤه الملابس الشرقية وتحوله إلى الأساليب الشرقية بداية انتقام آسية من أوروبا .

ولقد كان من الخير للإسكندر أن يموت وهو في عنفوان مجده ؛ ولو أنه طال به العمر لتكشف له أنه كان مخدوعاً في كثير من الأمور ، ولعله لو عاش لأقضت مضجعه الهزائم والآلام ولأحب السياسة ... وكان قد بدأ يجهها - أكثر مما يجب الحرب . لكنه أجهده نفسه فوق طاقته ، وأكبر الظن أن ما كان يتطلبه حفظ دولته العظيمة قوية موحدة ، ومراقبة أجزائها المختلفة بأجمعها ، قد بدأ يحدث الاضطراب في عقله المشرق النير ؛ ذلك أن الجلد ليس إلا نصف العبقرية ، أما نصننها الآخر فهو السيطرة على أعنة هذا الجلد وتملك ناصيته ؛ ولكن الإسكندر كان كله جدلاً ونشاطاً ؛ وكان يعوزه - وإن لم يكن من حقنا أن نتطلب منه - نضج قيصر المادئ أو حكمة أغسطس ودهاؤه .

ونحن نعجب به كما نعجب بناپليون لأنه لاقى بمفرده نصف العالم ، ولأنه يشجعنا على أن نؤمن بما في نفوس الأفراد من قوة كامنة لا يكاد الإنسان يؤمن بوجودها فيها . ونحن نشعر بعطف طبيعي عليه رغم إيمانه بالخرافات والأوهام وتصديقه ما لا يصح لمثله أن يصدق ، وذلك لأننا نعرف أن أقل ما يمكن أن يقال فيه أنه كان شابا كريم النفس قوى العاطفة ، كما كان رجلا قديراً باسلا لا يكاد يدانيه أحد في قدرته وبسالته ، وأنه كان يكافح ليتخلص مما في دمه من تراث من الهمجية يذهب بالعقل الحصيف ، وأنه فيما خاض من المعارك العنيفة وفيما أهرق من الدماء الغزيرة لم يغب عنه قط حلمه العظيم وهو نشر نور أثينة في عالم أوسع منها رقعة .

الفصل الرابع

خاتمة عصر

لما علمت بلاد اليونان بموت الإسكندر اندلع طيب الثورة على سلطان مقدونية في جميع أنحاءها . ونظم أهل طيبة المنفيون في أثينة قوة من الوطنيين وحاصروا الحامية المقدونية المرابطة في كدميا . وفي أثينة نفسها ، حيث كان الكثيرون يتضرعون إلى الآلهة أن تقضى على الإسكندر ، توج أعضاء الحزب المعادي للمقدونيين رهوسهم بأكاليل الغار حين أحسوا بأن دعاءهم قد استجيب ، وأنخلوا يقصفون ويمرحون لموت من كانوا قبل موته يتخلونه لإلهاء يعبد ، وينشدون ، كما يقول فلوطرخس « أناشيد النصر كأنهم قد فازوا عليه بشجاعتهم » (١٢) .

وكان دستين في هذه اللحظة القصيرة في ذروة مجده ، ذلك أن أموره في شلال حروب الإسكندر لم تكن كما يجب : فقد اتهم بأنه قبل رشوة كبيرة من هرپالوس Harpalus وزج في السجن ، ثم سمح له بالفرار وعاش تسعة أشهر يقاسى آلام النفي في تريزن Troezen . فلما مات الإبيسكندر استدعى من منفاه وأرسل في مهمة سياسية إلى الهلوبيونز ليعقد حلفاً لأثينة يعاونها في حرب الاستقلال والحرية . وزحفت قوة متحدة نحو الشمال والتقت بجيش أنتياتر عند كرانون Crannon ودارت عليها الدائرة . وفرض الجندى الطاعن في السن ، الذي لم يكن كالإسكندر يشعر بشيء من العطف على الثقافة الأثينية ، أفدح الشروط على المدينة المهزومة ، فطلب إليها أن تتحمل جميع نفقات الحرب ، وأن تقبل فيها حامية مقدونية ، وتلغى دستورها الديمقراطي ومحاكمها ، وتحرم من حق الانتخاب ، وتنقل إلى المستعمرات الخارجية كل المواطنين (١٢٠٠٠ من ٢١٠٠٠) (٢٧ - ج ٢ - مجلد ٢)

الذين تقل قيمة مملكاتهم عن ألقي درخمة ، وأن تسلم دمستين ، وهيريلدز ،
واثنين غيرهما من الخطباء المعادين للمقدونيين . فلما سمع دمستين بهذه
الشروط فر إلى كالوريا Calauria ورجأ إلى حمى أحد الهياكل . ولما أحاط
به مطارذوه المقدونيين تجرع ملء قارورة من السم ؛ ومات قبل أن يستطيع
جر نفسه من البهو المقدس .

وشهدت هذه السنة المشثومة نفسها خاتمة حياة أرسطو . لقد كان منذ
زمن طويل غير محبب للأثينيين : فقد كان المجمع العلمي ومدرسة إسقراط
يمقدان عليه لأنه كان ينقدهما وينافسهما ، بينما كان الوطنيون يعدونه زعيما
للحزب المناصر للمقدونيين . وانتزه أعداؤه فرصة موت الإسكندر فاتهموا
أرسطو بالمروق من الدين ، وجميء بفقرات من كتبه دالة على كفره بالآلهة
تأييداً لهذه التهمة ؛ واتهم أيضاً بأنه كرم الطاغية هرمياس Hermeias بما تكرم
به الآلهة ، وكان هرمياس هذا عبداً رقيقاً ومن ثم لم يكن في مقدوره أن
يصبح إلهاً . وغادر أرسطو المدينة في هدوء وهو يقول إن نفسه لا تطاوعه
أن يتيح لأثينة فرصة أخرى ترتكب فيها الإثم في حق الفلسفة^(٤٣) . ورجأ إلى
بيت أسرة والدته في خلكيديا وأوصى ثاوفراسطوس Theophrastus أن يعنى
بشئون اللوقيون . وحكم عليه الأثينيون بالإعدام ، ولكن الفرصة لم تسنح لهم
لتنفيذ الحكم ، كما أنهم لم يكونوا في حاجة لتنفيذه . ذلك أن أرسطو قضى نحيبه
بعد بضعة أشهر من مغادرته أثينة ؛ وقد يكون سبب موته مرضاً أصيب به
في معدته واشتد عليه بسبب فراره ، وقد يكون سببه كما يقول بعضهم أنه
تجرع السم . وكان وقت وفاته في الثالثة والستين من عمره ، وكانت وصيته
مثلاً أعلى في الحنان والتقدير لزوجته الثانية ، وأسرته ، وعبيده

وبعد فقد كان موت الديمقراطية اليونانية موتاً عنيفاً وطبيعياً في وقت
واحد . وكان أهم أسباب هذا الموت ما أصاب هذا النظام من اضطراب

تغلغل في كيانه ، ولم يكن سيف مقدونية إلا الضربة الأخيرة التي أجهزت عليه وهو يلفظ آخر أنفاسه . لقد تبين أن دولة المدينة لا تستطيع حل مشاكل الحكم : فقد عجزت عن حفظ النظام في الداخل ، وصد الأعداء في الخارج ؛ ولم تهتد إلى وسيلة توفق بها بين الاستقلال وبين الاستقرار القومي وقوة السلطان رغم نداء غورغياس ، وإسقاط وأفلاطون لهذه المدن بأن تستعين بشيء من التنظيم الدوري القوي لتكبح به جماح الحرية الأثينية . هذا إلى أن حب دولة المدينة للحرية لم يقف قط في سبيل نزعتها الإمبراطورية . يضاف إلى هذا أن حرب الطبقات قد اشتدت حتى أفلتت زمامها من أيدي الزعماء ، وجعلت الديمقراطية سباقاً إلى الانتهاب عن طريق التشريع . وانحطت الجمعية التي كانت هيئة شريفة في أحسن أيامها فأصبحت هيئة من الرعاع الصخابين تكره كل سلطة فوق سلطتها ، وترفض كل قيد يحد من هذه السلطة ، تقسو على الضعيف وتخضع ذليلة للقوى ، توافق على كل ما تنال من ورائه النفع لنفسها ، وترفض على الأملاك من الضرائب الفادحة ما من شأنه أن يقضي على الابتكار والنشاط والادخار . إن فايب والإسكندر وأنتياتر لم يكونوا هم الذين قضوا على الحرية اليونانية ، بل إن هذه الحرية هي التي قضت على نفسها بنفسها ، ولقد أبقى النظام الذي أقاموه حضارة لولاه لقضى عليها ما فيها من عناصر الفوضى الاستبدادية ، ونشر هذه الحضارة في مصر والشرق .

ومع هذا كله فهل استطاعت الأبحركية أو الملكية المطلقة أن تفعل خيراً مما فعلته تلك الديمقراطية ؟ إن حكومة « الثلاثين » قد ارتكبت في الشهور القلائل التي استولت فيها على أزمة الحكم من الفظائع ضد الأنفس والأموال أكثر مما ارتكبتها الديمقراطية في مائة السنين السابقة لهذا الحكم (٥) . وبينما كانت الديمقراطية تمخلق الفوضى في أثينة كانت الملكية تمخلق الفوضى في مقدونية ، وهل ثمة فوضى أكثر من حروب تربي على عشر جرائلها النزاع

على العرش ، ومائة من الاغتيالات ، وألف من القيود على الحرية ، وذلك كله من غير أن يصحب هذه الفوضى شيء من المجد الأدبي أو العلمي أو الفني يخفف من فظاعتها ؟ ولقد كان ضعف الدولة وصغرها في بلاد اليونان نعمة كبرى على الفرد ، نعمت بها روحه بلا ريب إن لم ينعم بها جسمه ؛ ذلك أن هذه الحرية ، وإن كلفته كثيراً ، قد أمكنت العقل اليوناني من أن يقوم بجلائل الأعمال . إن الفردية تقضى في آخر الأمر على الجماعة . ولكنها قبل أن تقضى عليها تقوى الشخصية ، والكشف العقلي ؛ والإبداع الفني ؛ ولسنا ننكر أن الديمقراطية اليونانية أضحت فاسدة عاجزة يجب أن تموت ، ولكن الناس أدركوا بعد موتها ما كانت عليه من الجمال في أيام مجدها ، وكانت الأجيال القديمة التالية على بكرة أبيها ترنو ببصرها إلى عهود بركليز وأفلاطون وتعدّها أعظم العهود التي شهدتها بلاد اليونان بل أحسن العهود في التاريخ كله ؛